"الفضائل المرذولة:
قراءة في محاضرة حمزة شحاته:
الرجولة عماد الخلق الفاضل"

د. عبدالرحمن بن خالد الخنيفر
عضو جمعية الفلسفة السعودية

تمهيد:

تُعد محاضرة الأديب الراحل **حمزة شحاته** (١٩١٠-١٩٧١م) أشهر محاضرة أدبية/ فلسفية في النصف الأول من القرن العشرين في الجزيرة العربية. وهذا الأسلوب في الطرح (محاضرة، خطبة)، كان تقليدًا ثقافيًا درج عليه رجال النهضة العربية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر في بيروت، وبعد ذلك في مدن المشرق؛ القدس ودمشق والقاهرة، فكان الأديب يلقي خطبته المكتوبة في المدارس أو الجمعيات أو الأندية ثم تنشر كاملة أو مقتطفات منها في المجلات الفكرية السائرة، كالمقتطف والهلال والمشرق (١).

وكان **شحاته** يسلك هذا التقليد، فقد نشر نص خطبته عن "**الثورة الفكرية ونصيب مدارسنا منها**" في **جريدة صوت الحجاز** (٢)، والتي أُلقيت في الحفل السنوي ل**مدرسة الفلاح** بجدة. وكان تقليد نشر نصوص المحاضرات والخطب أو مقتطفات منها جاريًا كذلك في **جريدة أم القرى**، فقد نشرت

---

(١) من أشهر هذه الخطب، خطبة **خليل ثابت** (ت١٩٦٤م) عن "**مقام الفرد في المجتمع الإنساني**" في **المدرسة الكلية ببيروت** عام ١٨٩٩م، ونُشرت في **مجلة المقتطف** (العدد ٩) في سبتمبر ١٨٩٩م. وخطبة الدكتور **منصور فهمي** (ت١٩٥٩م) عن "**الشرق والحضارة الغربية**" في حفلة **جمعية تهذيب الشبيبة ببيروت** عام ١٩٣٠م، وكانت "خطبة فلسفية نفيسة" ونُشرت في **مجلة المقتطف** كذلك (العدد٣) في أكتوبر ١٩٣٠م.

(٢) جريدة صوت الحجاز، (العدد٢٥١)، بتاريخ ١٩٣٧/٤/٦م.

عددًا كبيرًا من المحاضرات الملقاة في "**جمعية الإسعاف الخيري**" بمكة المكرمة [١]، ومحاضرات حفلات "**الشباب العربي السعودي المتعلم**" بالمدينة المنورة [٢].

ومن المؤسف أنَّ **شحاته** امتنع عن نشر نص محاضرته أو ملخص عنها في الصحف المحلية، أو في كتاب مستقل [٣] رغم محاولة جمهور أدباء الحجاز إقناعه بنشرها، حتى بعد مغادرته البلاد واستقراره في القاهرة. ولم تنشر إلا بعد وفاته بنحو عقد (١٩٨١م) [٤]؛ أي بعد واحد وثلاثين عامًا من إلقائها، ولذلك لم تنشط الكتابات النقدية عنها إلا بعد ذلك [٥].

ورغبة في استكمال هذه المراجعات النقدية على المحاضرة، أخذنا في **تحقيق المصادر الفلسفية** التي اتَّكأ عليها شحاته في محاضرته، لا سيَّما أنَّه "**كان من القلائل الذين لا يرضون لأنفسهم أو لأعمالهم أن تلمع فيها بارقة اقتباس أو تأثُّر أو تقليد**" [٦]. وقد أفاد معاصرو شحاته -وخصوصًا **عزيز ضياء**- ببعض المصادر التي طَبعت مسيرته الأدبية والفكرية، وشكَّلت ميوله الفلسفية. وهي المصادر التي سنفحصها لبحث أوجه التشابه والاختلاف بينها وبين محاضرته "**الرجولة عماد الخلق الفاضل**"، ونُضيف إليها **عددًا جديدًا من المصادر** التي نُرجِّح إفادة شحاته منها.

---

(١) منها على سبيل المثال: محاضرة "**الطب العربي والمدنية الأوروبية**" للدكتور **محمد الخاشقجي** (ت١٩٧٨م)، (العدد٧٣٢)، بتاريخ ١٣٥٧/١٠/٣٠هـ، ومحاضرة "**مشاهداتي في أوروبا**" للدبلوماسي الأستاذ **عبدالحميد الخطيب** (ت١٩٦١م)، (العدد٧٩٩) بشهر صفر ١٣٥٩هـ.

(٢) منها محاضرة: "**أثر الأدب في بعث مجد الأمة**" للأديب **عبدالقدوس الأنصاري** (ت١٩٨٣م)، في (العدد٦١٤) عام ١٣٥٥هـ.

(٣) نشرت "**جمعية الإسعاف الخيري**" محاضرات عام ١٣٥٧هـ في كتاب (محاضرات الإسعاف)، وتضمن نصوص عشر محاضرات عامة، ونصوص ثمان محاضرات طبية في نحو ٢٢٠ صفحة. ولم يتسنَّ للباحث الوقوف عليه، وإنما إفادة من الباحث الأستاذ قاسم الرويس.

(٤) نُشرت الطبعة الأولى من المحاضرة عن أصلها المخطوط لدى ورثة شحاته عام ١٩٨١م، وأشرف على إخراجها ابنته المذيعة **شيرين** وصديقه الأديب **عزيز ضياء**، عن **دار تهامة** ضمن سلسلة (الكتاب العربي السعودي) رقم ٢٧. وهي المعتمدة في دراستنا.

(٥) نشرت أبرز الدراسات النقدية عن محاضرة شحاته في عدد مخصص عنه في مجلة "**علامات في النقد**" مجلد ١٥، جزء٦٠، مايو ٢٠٠٦م، عن النادي الأدبي بجدة. ومؤخرًا في كتاب (قراءة فلسفية في الفكر السعودي (٢))، عن جمعية الفلسفة السعودية، عام ٢٠٢٣م.

(٦) حمزة شحاته: قمة عُرِفت ولم تكتشف، عزيز ضياء، ط١، ص٤٧. (جدة: مكتبة تهامة، ١٩٧٧م).

وبعد ذلك نُعرِج على أبرز مضامين المحاضرة؛ **لنؤكد على وحدتها الموضوعية ونسقها الفلسفي**، عدا بعض الفقرات المُشكِلة، والتي فتحت باب التأويل بمصراعيه للباحثين [١].

وقبل الخوض فيما أشرنا إليه، نعرِّف بسيرته، وبنتاجه المعرفي.

أولًا: التعريف بالأديب حمزة شحاته، ونتاجه المعرفي.

١/ التعريف بحمزة شحاته، ومقتطفات من سيرته.

ولد **حمزة شحاته** في مكة المكرمة عام (١٣٢٨هـ/ ١٩١٠م). أي قبل دخولها للحكم السعودي بأربعة عشر عامًا (١٩٢٤م)، بينما ترجِّح **ابنته شيرين** أنه وُلد قبل ذلك بست أعوام (١٩٠٤م). ونرى أن الرأي الأول أدق؛ لكونه رأي صديقه المعاصر **عزيز ضياء**، الذي وُلد عام ١٩١٤م، ويميز الفارق العمري بينهما [٢].

نشأ شحاته وترعرع في مدينة جدة، ودرس في **مدرسة الفلاح** الشهيرة، المؤسسة عام ١٩٠٤م على يد الوجيه **محمد علي رضا زينل** (ت١٩٦٩م). وكانت من أوائل المدارس النظامية في الحجاز، وتخرج منها جمهرة من الأدباء والوجهاء، منهم: **أحمد قنديل**، و**عبدالوهاب آشي**، و**محمد حسن فقي**، و**عمر عرب**، و**هشام ناظر** وغيرهم.

وبعد تخرجه سافر للعمل في "**بيت زينل**" بمدينة بومباي لمدة عشر سنوات [٣]، ولا نجد في مذكرات معاصريه أو ذكرياته الشخصية حديثًا عن هذه الفترة. ويبدو أنَّ شحاته كان منقطعًا فيها للتكوين الأدبي التراثي؛ كونه لم يتعلم اللغة الهندية ولا الإنجليزية هناك، ما يوحي بعزوفه عن ذلك، وانقطاعه للقراءة في التراث العربي.

---

(١) أشهرها حديثه عن حصر الفضائل، بالفضائل الدينية. انظر ص٧٩ من المحاضرة.

(٢) حمزة شحاته: قمة عُرِفت ولم تكتشف، عزيز ضياء، ص٣٥.

(٣) نشكك في دقة سنوات هذه الرحلة، وإذا صحَّت فهذا يعني أن شحاته غادر الحجاز وهو ابن الحادية عشرة، وعاد وهو ابن الحادية والعشرين تقريبًا (١٩٣١م). أي أن دراسته في مدرسة الفلاح لم تتم المرحلة الابتدائية -بتقديرات زماننا-.

حين عاد إلى الحجاز عمل في عدة وظائف إدارية. ونشر أول مقالة له في **جريدة صوت الحجاز** -حديثة النشأة- [١] في عددها الثامن بعنوان "**الأزمة**" [٢]، وكانت توافق بداية ما عُرف بـ"**تمرد ابن رفادة**" وهي محاولة تمرد وخروج مسلَّح، جرت شمال المملكة، وقضى عليها **الملك عبدالعزيز** (يرحمه الله). وتورَّط شحاته ونفر من شباب الحجاز في الترويج لها، منهم محرر جريدة صوت الحجاز **عبدالوهاب آشي، وإبراهيم دباغ، وحسن عواد** وغيرهم، ما استدعى إيقافهم ونفيهم لداخلية نجد، وسجنهم نحو ستة أشهر [٣].

وبعد إطلاق سراحه، عاد شحاته لكتابة مقالاته (غير المنتظمة). وخلال الفترة (١٩٣٢-١٩٤٠م) نشر معظم كتاباته النثرية والشعرية في الصحافة المحلية. وكان من آخرها محاضرته في **جمعية الإسعاف الخيري** بمكة المكرمة يوم الأربعاء ١٣٥٨/١٢/٢٩هـ الموافق ١٩٤٠/٢/٧م [٤] بعنوان "**الرجولة عماد الخلق الفاضل**"، وما تلاه من مقالات تعقيبية إثرها. وبعد ذلك غادر المملكة؛ ليعمل في إدارة البعثات السعودية بالقاهرة [٥]. وتوفي هناك عام ١٩٧١م [٦].

(١) صدر العدد الأول من **جريدة صوت الحجاز** في الرابع من أبريل عام ١٩٣٢م، وكانت أول جريدة أهلية سعودية يحررها "نخبة من الشباب"، تصدر مرتين في الأسبوع. واستمرت في الصدور عشر سنوات، ثم توقفت مع أحداث الحرب العالمية الثانية، وعادت للصدور باسم جديد (**صحيفة البلاد السعودية**).

(٢) جريدة صوت الحجاز، (العدد ٨)، بتاريخ ١٩٣٢/٥/٣٠م.

(٣) نشرت **جريدة أم القرى** نبأ القبض على "بعض أهل الشر الذين يذيعون الأراجيف الباطلة والإشاعات الكاذبة؛ ليظن الناس أنَّ في الحجاز اضطرابًا أو إخلالًا بالأمن". وتم نفيهم إلى "داخلية البلاد النجدية جزاءً لهم وردعًا لمن يغتر بأباطيلهم". انظر: (العدد ٣٩٤)، بتاريخ ١٩٣٢/٧/١م.

(٤) ذكر **عزيز ضياء** أنها أُلقيت عام ١٣٥٩هـ، والصحيح ما ذكرناه (١٣٥٨هـ) استنادًا **لجريدة أم القرى**، (العدد ٧٩٠)، بتاريخ ١٩٤٠/٢/٩م.

(٥) للاستزادة أكثر حول حياة شحاته في القاهرة، انظر: محمد صالح باخطمة، حمزة شحاته أيام معه، ط١، (جدة: مطابع سحر، ٢٠٠٦م).

(٦) حول تأبينه في الصحف السعودية، انظر: عبدالمقصود خوجه، الأعمال الكاملة لحمزة شحاته، ج١، ص٣٢-٤٠.

٢/ التعريف بنتاجه الأدبي والفكري.

نُشرت جميع مؤلفات شحاته بعد وفاته بسنين، وهي كما يلي:

١- "حمار حمزة شحاته" في (٩٠) صفحة. نشر عام ١٩٧٧م **(وهي مجموعة مقالات)**.

٢- "إلى ابنتي شيرين" في (٢٢٠) صفحة. نشر عام ١٩٨٠م.

٣- "رفات العقل" في (١٠٤) صفحة. نشر عام ١٩٨٠م. **وهو جدير بالنظر**.

٤- "الرجولة عماد الخلق الفاضل" في (١٢١) صفحة. نشر عام ١٩٨١م.

٥- "ديوان غادة بولاق" في (٣٢) صفحة. نشر عام ١٩٨٢م.

٦- "ديوان حمزة شحاته" في (٣٤٧) صفحة. نشر عام ١٩٨٨م.

وجمعتْ أعماله الكاملة "**اثنينية**" عبدالمقصود خوجه بمناسبة مئوية ميلاده (١٩١٠-٢٠١٠م) في ثلاثة مجلدات [١].

٣/ محاضرة/ كتاب "الرجولة عماد الخلق الفاضل".

أُلقيت هذه المحاضرة بجمعية الإسعاف الخيري يوم الأربعاء ٧ فبراير ١٩٤٠م؛ ونقلت جريدة أم القرى أصداء المحاضرة بقولها: "ألقى الأديب الكبير الأستاذ حمزة شحاته محاضرته القيمة في منتدى جمعية الإسعاف الخيري. وكانت المحاضرة قيِّمة نفيسة إلى أبعد حد، واستمع إليها جمهور كبير من الشباب المثقف، ومن رجال العلم والأدب والفضل، واستمر المحاضر في إلقائها زهاء ثلاث ساعات، وقد قوبلت بمنتهى الاستحسان والإعجاب؛ لما اشتملت عليه من البحث الطريف النفيس" [٢].

(١) صدرت تحت مسمى "**الأعمال الكاملة للأديب الكبير الأستاذ حمزة شحاته**" ضمن **(كتاب الاثنينية)** عن الناشر **عبدالمقصود محمد سعيد خوجه** - جدة، عام ٢٠١٠م. وينقصها خطبة شحاته بمدرسة الفلاح عام ١٩٣٧م، وأثبتنا جزءًا منها في ملحق الورقة للتوثيق واتصالها بالدراسة.

(٢) جريدة أم القرى، (العدد ٧٩٠)، بتاريخ ٩/٢/١٩٤٠م.

ومنتدى جمعية الإسعاف الخيري محاذٍ لباب الوداع بالمسجد الحرام. وقد تأسست عام ١٩٣٥م(١) على منوال جمعيات الإسعاف المؤسسة في مصر نهاية العشرينيات (٢). وكانت الجمعية مقرًا للمحاضرات الطبية والفكرية والدينية في الفترة (١٩٣٦-١٩٤٠م). وليس صحيحًا أنَّ محاضرة شحاته كانت المحاضرة الأخيرة في الجمعية (٣).

ويبدو أن شحاته انقطع للإعداد للمحاضرة عامًا كاملًا، فعند عودتنا لأرشيف مقالاته نجد أنَّ آخر مقالة كتبها كانت بعنوان "**عظيم**" في **صوت الحجاز** بتاريخ ١٩٣٩/٢/١٩م.

ولا نجد لشحاته -قبل إلقاء المحاضرة- أي حديث فلسفي يتناول فيه موضوع الأخلاق إلا في مقال وحيد نشر قبل المحاضرة بثلاثة سنوات ونصف بعنوان "**فضائل مَجفوَّة**" (٤). ونجد في بدايته خيطًا رفيعًا يربط بينه وبين محاضرة "الرجولة عماد الخلق الفاضل" بقوله: "من الواجب أن تتغير نظرة الناس إلى كثير من الفضائل، **فإن العفة لم تعد في موازين الحياة العامة إلا ضعفًا**، والأنفة حماقة وأفنًا في العقل".

وهذا يوحي بإدراك شحاته **أزمة الأخلاق في المجتمع**، وبداية تخمر موضوع المحاضرة في ذهنه منذ سنين؛ لكونه أشار في ذات المقال إلى خلق **الحياء** الذي يعدّه قوام الخلق الفاضل، "وليقل لنا من يماري في هذه الحقيقة **ما هي نظرة الناس إلى الحياء؟** الذي كان معدودًا من أكثر الفضائل تمثيلًا لكمال النفس .. **أليس هو اليوم معدودًا من دلائل الضعف والفتور وانحلال الحيوية؟**"، وكأنه ينعي غياب الحياء، ويتساءل لماذا أصبحت هذه الفضائل مَجفوَّة ومنكرة؟!

---

(١) انظر: جريدة أم القرى، مقال "جمعية الإسعاف الخيري"، (العدد ٥٥٧)، بتاريخ ١٩٣٥/٨/١٦م. ومقال "الجمعيات الخيرية في بلادنا"، (العدد ٦٣٣)، بتاريخ ١٩٣٧/١/٢٢م

(٢) انظر: خبر افتتاح "**جمعية الإسعاف بالجيزة**" **مجلة المصور**، (العدد ٢٤٤)، بتاريخ ١٤يونيو١٩٢٩م.

(٣) استمر إلقاء المحاضرات في جمعية الإسعاف الخيري زهاء أربعة أشهر ونصف، حتى منتصف شهر ربيع الثاني عام ١٣٥٩هـ، بما يبلغ ١٩ محاضرة. للاستزادة، **انظر**: معجم المصادر الصحفية (جريدة أم القرى)، منصور الحازمي، ج١، ص٢٢٥-٢٣٤.

(٤) نشرت في **جريدة صوت الحجاز**، (العدد ٢٦٦)، بتاريخ ١٩٣٦/٩/٢٩م. وسنثبتها في الملحق لأهميتها في تحليل محاضرة شحاته.

ويسخر من واقع المجتمع الذي يتدثر بالمثالية والأخلاق، فيقول: "ولو أنَّ مفكرًا حرًا زيَّن للناس أن **يربوا أبناءهم على الوقاحة في مواضع الحياء** .. وعلى الكذب والرياء والملق والخداع، لقال الناس إنه إباحي لا يقيم للفضائل وزنًا، **جاهلين أنه يبني جيلًا ناجحًا بهذا المبدأ ويقضي على آخر ضعيف متعثر!**". ويقصد شحاته أن الجيل المتربي على الخداع يقضي على من يمتهن الفضائل ومنها فضيلة الحياء؛ لأنه أصبح في أعين الناس مرذولًا. **ومن هنا كان عنوان ورقتنا "الفضائل المرذولة"؛ لكون المجتمع يقيم للفضائل وزنًا في الكلمات والمواعظ لا في التعاملات والواقع، فهي فضائل نظرية ورذائل عملية!** ويختم شحاته مقالته بقوله: "وها نحن نرى اليوم وسائل النجاح محصورة في مجموعة من الرذائل والصغائر كان الواجب أن نتنكر لها" [(١)].

وبعد إلقاء شحاته لمحاضرته عن الرجولة، كتب الأديب **عبدالله عريف** مقالة تعقيبية بعنوان "**ضريبة الإعجاب**" أشاد فيها بمضامين المحاضرة [(٢)]، واعترض على جزئية متصلة بالذوق والجمال في قول شحاته: "إنَّ إدمان النظر إلى الصورة الجميلة يفقدها تدريجيًا سحرها". كما اعترض على تعريف شحاته **للرجولة والفضيلة**، بقوله: "لا نرى أن مأساة الحياة إنما هي الخصومة بين الفضيلة والرذيلة، بل هي في الخلاف بين الفضيلة والفضيلة" [(٣)]. ومن هذا الاعتراض يتبين أنَّ **عريف** لم يدرك مغازي المحاضرة أو أراد تشتيت الانتباه عن مضامينها الفاعلة [(٤)].

---

(١) جريدة صوت الحجاز، (العدد ٢٦٦)، بتاريخ ١٩٣٦/٩/٢٩م.

(٢) يشير الأديب **عبدالله منَّاع** (ت٢٠٢١م) أنَّ **عريف** كتب مقالته النقدية على المحاضرة بإيعاز من الوجيه **محمد سرور صبَّان** (ت١٩٧٢م)؛ لأن شحاته لمز في محاضرته في عوائد وجهاء الحجاز في العطاء والبذل، متهمًا إياهم أنهم يبذلونها لتحقيق ذواتهم والتكسب من الوجاهة الاجتماعية. **انظر**: وثائقي: مما جرى في بطحاء مكة: قصة حمزة شحاته، د (٠١:١٠)، إخراج: محمود صبَّاغ.

(٣) جريدة صوت الحجاز، (العدد ٤٤٦)، بتاريخ ١٣٥٩/١/١٠هـ.

(٤) كتب شحاته ردودًا في ست مقالات على **عبدالله عريف** بعنوان "**بين النقد والجمال**" كانت خاتمة مقالاته الصحفية في السعودية. وفي أثنائها تدخَّل في السجال بينهما الأديب **أحمد عبدالغفور عطَّار** (ت١٩٩١م) منتصرًا لشحاته، و**محمد عمر توفيق** (ت١٩٩٤م) منتصرًا لعريف. **للاستزادة، انظر** الأعداد التالية من جريدة صوت الحجاز: (٤٤٦، ٤٥١، ٤٥٣، ٤٥٩، ٤٦١) سنة ١٣٥٩هـ.

٤/ المصادر الفكرية للأديب حمزة شحاته.

يشير **عزيز ضياء** في كتابه **(حمزة شحاته: قمة عُرِفتْ ولم تكتشف)** [١] إلى قراءات شباب الحجاز -مطلع الثلاثينيات الميلادية- فيذكر مجموعة من المصادر التراثية، والمراجع الأدبية والفكرية المعاصرة؛ المؤلَّفة والمترجمة. وكذا الصحف والمجلات التي انتظم الشباب المثقفون على قراءتها. والذي يتصل بحديثنا تحديد وتخمين المصادر الفكرية **التي قرأها شحاته قبل محاضرته الشهيرة عام ١٩٤٠م** [٢]، للوقوف على المؤثرات الفلسفية التي صاغت فكر شحاته، والتي استطاع هضمها وطبعها بطابعه الخاص، دون أن يظهر أثرها بوضوح في المحاضرة، ما يؤكد ما يحكيه معاصروه عنه، أنه كان صاحب أنفة من إظهار مصادره.

وإذا ما نحَّينا المصادر التي صدرت بعد المحاضرة (١٩٤٠م)، نجد أن مصادر شحاته الفكرية، هي ما يلي بزمن الصدور:

١/ كتاب **(فلسفة النشوء والارتقاء)، لشبلي شميل**، صدر في جزئين عام ١٩١٠م. ويحتوي على مجموعة من الرسائل والمقالات الداعية لمذهب **داروين**، وأخرى في قضايا فكرية واجتماعية. وهو في نحو ٦٠٠ صفحة. وعن هذا الكتاب يقول **عزيز ضياء** في أثره عليه وعلى أبناء جيله: "لست أنسى كيف كنَّا نتناوب على النسخة الوحيدة من كتاب أو كتب الدكتور شبلي شميل، رغم ما كان معروفًا

---

(١) يُعد هذا الكتاب أفضل مرجع استقصى مصادر شحاته الأدبية والفكرية، فذكر نحو ٢٥ مرجعًا في حديثه عن مسيرته الثقافية. وهو من إصدارات دار تهامة، عام ١٩٧٧م.

(٢) يمكن أن يتصدَّى أحد الباحثين لدراسة المصادر الأدبية، وخصوصًا الروائية التي قرأها شحاته قبل محاضرته لدراسة أثرها الأسلوبي أو الفكري عليه. ومن أشهرها: رواية **(سانين أو ابن الطبيعة)** للروائي الروسي **أرتزيباشيف**، نقلها للعربية **إبراهيم المازني** (١٩٢؟م)، ورواية **(إبراهيم الكاتب) للمازني** أيضًا عام ١٩٣١م، ورواية **(تاييس) لأناتول فرانس**، نقلها للعربية **أحمد الصاوي محمد** عام ١٩٢٤م، ورواية **(الحب والحياة "الزنبقة الحمراء") لأناتول فرانس** أيضًا، نقلها للعربية **أحمد الصاوي محمد** عام ١٩٢٦م، و**(أناتول فرانس في مباذله)** للمؤلف **جان جاك بروسون**، نقله للعربية **شكيب أرسلان** عام ١٩٢٩م، ورواية **(أهوال الاستبداد)** للروائي **ألكسي تولستوي**، نقلها للعربية **خليل بيدس** عام ١٩٢٧م، وغيرها.

عنه من تطرف في الدعوة إلى التحرر من الآراء والعادات القديمة. ومن تسليمه بمذهب داروين تسليمًا مطلقًا" [(١)].

٢/كتاب (**في الشعر الجاهلي**) **لطه حسين**، صدر عام ١٩٢٦م. ومنه أخذ شحاته **الجرأة على النقد والتشكيك**. يقول **عزيز ضياء**: "ظللنا ندير الحوار حول آراء الدكتور طه حسين وآراء من ثاروا عليه" [(٢)].

٣/كتاب (**أصل الأنواع**) **لداروين**، ترجمة **إسماعيل مظهر**، صدر عام ١٩٢٨م. وهو من أكثر الكتب تأثيرًا على شحاته في النصف الأول من المحاضرة.

٤/كتاب (**جمهورية أفلاطون**) **لحنَّا خباز**، صدر عام ١٩٢٩م. ومنه قرأ عن مفاهيم الفضائل، وطبقات المجتمع، وطبيعة التربية المثالية، ولم يظهر أثره عليه في المحاضرة.

٥/كتاب (**عِلم الدولة**) **لأحمد وفيق**[(٣)]، صدر في أربعة أجزاء عام ١٩٣٤م. ولم يظهر أثره عليه كذلك في المحاضرة، رغم أن **عزيز ضياء** يقول إنه نظَّم برنامجًا لقراءته من الجلدة إلى الجلدة مع **حمزة شحاته**.

٦/ جريدة "**السياسة الأسبوعية**" والتي يحررها الأديب **د.محمد حسين هيكل**. بدأت في الصدور عام ١٩٢٦م. وساهم في تحريرها كبار الأدباء والمفكرين المصريين من أمثال: **علي عبدالرازق، وطه حسين، ومحمود عرفي، وعباس حافظ، وعبدالعزيز البشري** وغيرهم.

(١) حمزة شحاته: قمة عُرفت ولم تكتشف، عزيز ضياء، ص١٦.

(٢) المرجع السابق، ص١٨.

(٣) يعنون **عزيز ضياء** لهذا الكتاب بـ(**فقه الدولة**) والصحيح ما ذكرناه؛ لأن ضياء يحدِّث من الذاكرة، والكتاب في أربعة أجزاء، ولعلهم وقفوا على جزئين منه. انظر: المرجع السابق، ص١٩.

٧/ جريدة "**الجهاد**" المصرية، ويحررها السياسي **محمد توفيق دياب**. بدأت في الصدور عام ١٩٣١م. وهي ذات نزعة استقلالية وعدائية ضد الاستعمار الإنجليزي. وذكر **عزيز ضياء** أنهم كانوا يقرأون فيها على الأخص مقالات طه حسين.

وهكذا ننتهي من المصادر الفكرية التي ذكرها عزيز ضياء.

ويذكر الأديب **محمد حسين زيدان** (ت١٩٩٢م) أن شحاته استند في عناصر محاضرته على كتاب (**علم الاجتماع**) **لنقولا حداد** (ت١٩٥٤م) [١]، الصادر في جزئين، في نحو ٦٥٠ صفحة، عام ١٩٢٥م. ونجد مبالغة في ذلك، إلا في أجزاء يسيرة من حديث نقولا حداد عن نشوء القوانين والشرائع في تطورات التجمع السلالي [٢].

أمَّا المصادر الأخرى التي وقفنا عليها، ونظن أن شحاته استفاد منها بدرجات متفاوتة، فهي ما يلي بترتيب صدورها:

١/ كتاب (**الأخلاق**) **لأحمد أمين**، صدر عام ١٩٢٣م، وطُبع مرارًا. ويظهر لنا أن شحاته استفاد من فصل "**الفضيلة**" في مفهوم الفضائل (الشجاعة، العفة، الصدق) استفادة محدودة.

٢/ كتاب (**الأخلاق لأرسطو**) ترجمة **أحمد لطفي السيد**، صدر عام ١٩٢٤م، في جزئين. ويظهر أن شحاته لم يرتضِ مفهوم **أرسطو** في مفهوم الفضيلة الذهبي (الوسط بين الرذيلتين)، كما أشار إلى ذلك في المحاضرة، إضافة لعدم تناوله مفهوم السعادة والخير الأسمى، وهي جوهر كتاب الأخلاق لأرسطو، ونتلمس سبب عزوفه عن ذلك؛ لأن مفهوم السعادة غاية الأخلاق الفردية، بينما انصبَّت محاضرته بالحديث عن الأخلاق الاجتماعية.

(١) انظر: الأعمال الكاملة لحمزة شحاته، ج١، ص٤٤.

(٢) علم الاجتماع: حياة الهيئة الاجتماعية وتطورها، نقولا حداد، ج٢، ص٢٣٣-٢٣٩.

٣/ كتاب (**تاريخ فلاسفة الإسلام في المشرق والمغرب**) **لمحمد لطفي جمعة**، صدر عام ١٩٢٧م، واقتبس منه نصًا منسوبًا للفارابي [١].

٤/ كتاب (**قصة الفلسفة الحديثة**) **لزكي نجيب محمود وأحمد أمين**، الصادر عام ١٩٣٦م [٢].

ويظهر لنا استلهام شحاته مفهوم القوة من حديثهما عن **نيتشه** بقولهما: "جاء **نيتشه** فانتزع من نظرية **داروين** نتيجتها الحتمية في الأخلاق في غير خوف ولا وَجَل، فإذا كانت الحياة هي تنازع البقاء وبقاء الأصلح دون غيره، **فالقوة إذن هي الفضيلة السامية، والضعف هو النقيصة والشر**" [٣].

ويوظف شحاته مفهوم "**القوة**" كمحرك لصراع القيم، ويلبسه لباس الإجلال والجمال، ويسميه بـ"**الرجولة**". ونجد في ذات الكتاب عرضًا لمفهوم الفضيلة عند الرومان، فـ"الفضيلة عند الروماني هي الرجولة والشجاعة والإقدام والجُرأة" [٤]. وهو ما يقول به شحاته في المزاوجة بين الفضيلة والرجولة.

٥/ كتاب (**هكذا تكلم زرادشت**) **لنيتشه**، ترجمة **فليكس فارس**. وهو أيضًا عبارة عن مقالات مترجمة نشر بعضها في "مجلة الرسالة" عام ١٩٣٦م لعدة أسابيع، ثم صدرت في كتاب عام ١٩٣٨م[٥].

ونلحظ أن شحاته أخذ منه -جزئيًا- جوهر تحليله لبشرية نشوء الفضائل والرذائل، وأن الأطوار الأولى للإنسان سادت فيها قيم القوة والشجاعة (قيم الأقوياء) ثم ناكفهم الضعفاء بقيمهم الهزيلة (الرحمة، التأني)؛ ليحموا أنفسهم. وكذلك أخذ منه قراءته لتحليل القيم الأخلاقية لصالح الأقوياء، ورؤيته لوجود مكون عضوي في القيم ينحاز تلقائيًا للأقوى [٦].

---

(١) الرجولة عماد الخلق الفاضل، حمزة شحاته، ص٣٥.

(٢) أصل هذا الكتاب مقالات نشرها **زكي نجيب محمود** عن الفلسفة الحديثة بين عامي (١٩٣٣ - ١٩٣٤م)، تمثل نحو ربع الكتاب. وعند المقارنة بين المقالات والكتاب المنشور، نلحظ أن دور **أحمد أمين** يقتصر على بعض التصحيحات اليسيرة، أما مادة الكتاب والصياغة فمن تأليف **زكي نجيب محمود**.

(٣) قصة الفلسفة الحديثة، زكي نجيب محمود وأحمد أمين، ج٢، د.ط، ص٥٠٧. (القاهرة: لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٤٩م).

(٤) المرجع السابق، ص٥٣١.

(٥) هكذا تكلم زرادشت، فريدريك نيتشه، تر: فليكس فارس (الإسكندرية: مطبعة جريدة البصير، ١٩٣٨م).

(٦) يقول نيتشه: "ليس هناك من خير دائم وشر دائم؛ لأن على الخير والشر كليهما أن يندفعا أبدًا إلى التفوق والاعتلاء". المرجع السابق،

في المقابل آمن شحاته بوجود ثنائية الخير والشر في صورتها الدينية [١]، وبوجود خير إنساني [٢] – تعرض للاستغلال من قبل الأقوياء والضعفاء– بخلاف نيتشه [٣]، وهذا يشكل فرقًا جوهريًا بينهما. فشحاته إذن استفاد من نيتشه في كيفية نشوء المفاهيم الأخلاقية (الفضائل والرذائل) أو لنقل كيفية خلق الطبقات المتصارعة قيمها.

ومن النصوص النيتشوية التي نجد أصداءها عند شحاته، قول **نيتشه**: "**لقد أقام الناس الخير والشر، فابتدعوهما لأنفسهم، وما اكتشفوهما ولا أنزلا عليهم بهاتف من السماء**" [٤]. وقوله: "ما خَلق الخير والشر في كل عصر إلا المتهوسون المبدعون" [٥]. ويقول كذلك: "لقد تيقنت وجود إرادة القوة في كل حي، ورأيت الخاضعين أنفسهم يطمحون إلى السيادة؛ لأن في إرادة الخاضع مبدأ سيادة القوي على الضعيف" [٦]. **ويقول في نص في غاية الأهمية**: "وأنتم أيها الواضعون للقيم أقدارها بمقاييسكم وموازينكم، وبما تقولونه عن الخير والشر هل كان لكم أن تفعلوا هذا لو لم تكن لكم إرادة القوة؟ وما تطمحون في أعماق ضمائركم إلا إلى الشهوة والشعور بتأثركم وفيضان أرواحكم" [٧].

ونجد نصًا هامًا، يحوم حول مفهوم الرجولة والفضيلة، وهو قوله: "إنما تنشأ فضيلتكم عندما يعجز المدح والذم عن بلوغ شعوركم، فتطمح إرادة الرجولة فيكم إلى السيادة على كل شيء" [٨]. **فكأن**

ص١٤٤.

(١) من نافلة القول أنّ شحاته كان يؤمن بالموروث الأخلاقي الديني، بخلاف نيتشه الذي بشَّر بموت الإله، وبعث الإنسان/ الإله.

(٢) يقول نيتشه: "أما المساواة أمام الله فما لنا ولها ما دام هذا الإله قد مات". فريدريك نيتشه، هكذا تكلم زرادشت، ص٣١٣.

(٣) آمن شحاته بالأخلاق الغيرية، واستمات في الدعوة إليها، وكنَّا نتمنى لو أمعن النظر فيما كتبه **زكي نجيب محمود** عن "**نقد العقل العملي**" عند **كانط**، ليثري لنا الحوار الفلسفي بينهما.

(٤) هكذا تكلم زرادشت، فريدريك نيتشه، ص٨٥.

(٥) المرجع السابق، ص٨٥.

(٦) المرجع السابق، ص١٤٣.

(٧) المرجع السابق، ص١٤٤.

(٨) المرجع السابق، ص١٠٢.

الرجولة تسود عندما تعجز الفضيلة، ولذلك قال **نيتشه** بعدها: "ارجِعوا الفضيلة الضالة كما رجعتُ بها أنا إلى مرتعها في الأرض. عودوا بها إلى الجسد وإلى الحياة لتنفخ في الأرض روحها، روحًا بشرية"[١].

٦/ كتاب (**نيتشه**) **لعبدالرحمن بدوي**، صدر في أكتوبر عام ١٩٣٩م [٢].

والتقاطع بين الكتاب والمحاضرة ظاهر؛ لأن فلسفة **نيتشه** حاضرة في حديث شحاته، ومن ذلك حديث **عبدالرحمن بدوي** في شرحه لفلسفة "قلب القيم" عند **نيتشه**، حيث يقول: "إن العبد يسمي العجز إحسانًا وطيبة، ويسمي عدم قدرته على رد الفعل مباشرة وبالمثل صبرًا. ويعد هذا الصبر من أمهات الفضائل، ويسمي حاجته إلى الآخرين وعجزه عن الاعتماد على نفسه رحمة.. وهكذا هكذا، تجده **يهدر القيم الصالحة النبيلة، ويضع مكانها قيمًا تدل على الضعف والذلة والخنوع**" [٣].

٧/ مجموعة مقالات نشرت في "**مجلة الرسالة**" **لأحمد حسن الزيات**، ومنها المقالان التاليان:

أ) مقال "**الرجولة في الإسلام**" **لأحمد أمين**، وفيه تحدث عن مفهومها المعنوي، ومفهومها عند **النبي الأكرم** (ﷺ). وتعريف **أحمد أمين** للرجولة من أفضل تعاريفها المعاصرة [٤].

ب) مقال "**غريزة الخير والشر، وكيف نشأت في الإنسان والحيوانات الاجتماعية**" **لنصيف المنقبادي** [٥]. ويشكل مضامين هذا المقال فحوى النصف الأول من محاضرة شحاته، حيث تتقاطع معها في العناصر التالية:

١. النظر إلى نشوء الفضائل والغريزة الأخلاقية، كوليدة للحياة الاجتماعية **وصيرورتها الطبيعية** في الإنسان والحيوان كما يرى **هربرت سبنسر**.

---

(١) هكذا تكلم زرادشت، فريدريك نيتشه، ص١٠٣.

(٢) صدر الكتاب قبل إلقاء المحاضرة بنحو أربعة أشهر فقط، وكُتِب عنه في "**مجلة الرسالة**" في الشهر الذي يلي الإصدار (نوفمبر). ومن المحتمل أن شحاته لم يطَّلع عليه، لكن يظل احتمال مطالعته له قائمًا.

(٣) نيتشه، عبدالرحمن بدوي، ط٥، ص١٧٧. (الكويت: وكالة المطبوعات، ١٩٧٥م).

(٤) مجلة الرسالة، (العدد ٩٣)، بتاريخ ١٩٣٥/٣/١٥م.

(٥) مجلة الرسالة، (العدد ٢٠٣)، بتاريخ ١٩٣٩/٣/٢٤م.

٢. تبني فكرة الأطوار الإنسانية المتعددة عبر التاريخ، وتلبيتها لجدليات الواقع.

٣. التأثر بتعريف الكاتب للفضيلة والرذيلة مع بعض التعديل الطفيف.

ويفترق شحاته عن الكاتب بكونه جعل من (القوة) المفهوم الاحتياجي للفرد والجماعة، وجعلها مساوية لمفهوم الرجولة، وما تولد منها من قيم.

ثانيًا: مضامين محاضرة حمزة شحاته "الرجولة عماد الخلق الفاضل".

١/ تمهيد.

أسهب شحاته في مقدمة تمهيده دفاعًا عن "استقلالية" فكره و"نظراته"، وبكون بحثه "أشبه بمحاولة **أدبية جريئة لتحليل الأخلاق** وعلاقتها الأصيلة بالحياة" [١]؛ لأنه "أول من يتناول البحث فيها بهذه الطريقة التجريدية وبهذا الأسلوب العاري" [٢].

ثم تراجع قليلًا عن دعوى الاستقلال بقوله: "ولا نستبعد أن يكون ما نقوله في هذه التعاريف، وفيما يتلوه من الفروض والنظرات **متأثرًا بما سبقنا إليه الباحثون**.. فالباحث في الخير والشر، والفضيلة والرذيلة، لا يمكن أن يأتي **في تعريفها بجديد يختلف كثيرًا عما أتت به الملكات والأفهام قبل ألف سنة مثلًا**.." [٣]، وألمح إلى الاستفادة من الغير: "وقد يكون شيئًا تجدون مشابهه في الجديد فما ننفي عنه هذه الشبهة" [٤]. ودافع عن موقفه بتشابه أساليب كتَّاب وشعراء الحجاز بأدباء مصر، "فهل يعد

(١) الرجولة عماد الخلق الفاضل، حمزة شحاته، ص٣٠.

(٢) المرجع السابق، ص٣٤.

(٣) المرجع السابق، ص٣٠-٣١.

(٤) المرجع السابق، ص٣٢.

هذا تقليدًا أو سرقة؟" يتساءل شحاته [1]، وألمح لمطالعته لأفكار أديب مصري ينقل مذاهب فلاسفة الغرب [2].

وما ذكره شحاته من كونه أول من يطرح هذا الموضوع بهذه الطريقة في الحجاز صحيح، بل نقول أبعد من ذلك، من كون ما كتبه يرقى في نصفه الأول لمصاف الثورة الأخلاقية، وهي كتابات تفوق -في تقديرنا- ما كتبه **سلامة موسى** و**إسماعيل مظهر** في الدعوة للتجديد القيمي تحديدًا (في نصف المحاضرة الأول) [3]. ولو كانت المحاضرة ملقاة في "الجمعية الجغرافية الملكية أو التاريخية" بالمملكة المصرية -حينها- لاحتفى بها الأدباء والمفكرون المصريون، وخلدت في تاريخ الفكر العربي. لكن للأسف لم تعطَ حقها من النقاش الفكري عربيًا لعدم نشرها، ومحليًا لضعف عناية المثقفين في الحجاز وفي عموم البلاد بالقضايا الفلسفية.

وبالغ شحاته في تقدير ردود الفعل على المحاضرة بقوله: "فإن كتبت لي السلامة -ولا أتوقعها- فإنما تكون أثر الحظ، وخارقة من خوارقه المعروفة" [4]، واقتصر التعقيب على المحاضرة على مقالات عبدالله عريف -التي أشرنا إليها-.

٢/ لماذا غيَّر شحاته عنوان محاضرته؟

كان عنوان المحاضرة "**الخلق الكامل كعماد للرجولة**" [5]، وقام شحاته بتحويره ليصبح "**الرجولة عماد الخلق الفاضل**". وعلَّل استبداله "**الفاضل**" عوضًا عن "**الكامل**" بأن طلبه **عزيز** "فما يزال

(١) الرجولة عماد الخلق الفاضل، حمزة شحاته، ص٣٤.

(٢) قد يكون هذا تلميحًا لمطالعته كتاب (قصة الفلسفة الحديثة) لزكي نجيب محمود وأحمد أمين.

(٣) لم نذكر ضمن الأمثلة الأستاذ الأزهري **محمد يوسف موسى** (ت١٩٦٣م)؛ لأنه لا يتفق مع شحاته فيما طرحه. ومن المثير أن **فليكس فارس** (ت١٩٣٩م) مترجم كتاب **نيتشه (هكذا تكلم زرادشت)** كتب مقدمة طويلة في معارضة طرح **نيتشه** مستشهدًا بأدلة إسلامية! وهذا يلفت إلى أمر آخر أيضًا، وهو حضور تراث **نيتشه** عربيًا في الثلاثينيات الميلادية بكثافة مع صعود الأحزاب النازية والفاشية في ألمانيا وإيطاليا.

(٤) الرجولة عماد الخلق الفاضل، حمزة شحاته، ص٢٦.

(٥) نشرت **جريدة أم القرى** عنوان المحاضرة خطأً "**الخلق الكامل عنوان الرجولة**". انظر: (العدد٧٩٠)، بتاريخ ١٩٤٠/٢/٩م.

الكمال نشيدة الحياة المطولة" [1]. ولعله اختار "الفاضل"؛ لأن مصطلح الفضيلة هو الدارج في الدرس الفلسفي الأخلاقي.

وهنا نتساءل لماذا جعل "**الرجولة عماد الخلق الفاضل**" وليس العكس "**الخلق الفاضل عماد الرجولة**"؟ يقول **عزيز ضياء** أن ذلك "التماسًا للوزن" [2]، ولا يبدو ذلك مسوغًا للتغيير، ونرى أن ذلك ينبأ عن علة فلسفية قوامها أن "**القوة**" هي المحرك الفاعل والمغناطيس الجاذب للفضائل، فهي لذلك عماد الخلق الفاضل، وتحسبًا من الخروج عن المعنى المراد، استبدل شحاته مفردة "القوة" بـ"الرجولة"؛ لكونه يراها مفيدة لمعنى القوة، ولكونها مفردة من صميم التراث العربي، وإن كانت غير متداولة كصفة **أخلاقية** [3].

٣/ ما أغراض شحاته من المحاضرة؟

ينزع شحاته لتحليل الفضائل وردها لمصادرها الأصيلة، فهو يقول: "أريد التجريد والتعرية كباحث لا كمحاضر" [4]؛ لبيان أثرها وعلاقتها بالنفوس، من خلال "تعرية القيم الاجتماعية" وكشف نفاقها، وأنها منحازة للأقوياء في نشوئها وفي تعاطيها، فهو يريدها خالصة للدين وللإنسانية السامية [5].

---

(١) الرجولة عماد الخلق الفاضل، حمزة شحاته، ص٢١.

(٢) حمزة شحاته: قمة عُرِفت ولم تكتشف، عزيز ضياء، ص٦٢.

(٣) تحتاج مفردات "**الرجولة**" و"**الفتوة**" و"**المروءة**" لدراسة معجمية مقارنة بينها؛ لمعرفة علائقها الأخلاقية في التراث العربي. فـ"الرجولة" على سبيل المثال قليلة الورود في القرن الثاني الهجري، ويصادفنا ذكرها في (**كتاب بغداد**) **لابن طيفور** (ت٢٨٠هـ) في القرن الثالث الهجري، بمعنى يدل على التَّحمل والقوة، في تفسير كلامٍ من الفارسية "در مرك نيز مردي بايد" أي أنه يحتاج في الموت أيضًا إلى الرجولة. انظر: كتاب بغداد، أبو الفضل أحمد بن أبي طاهر ابن طيفور، تح: السيد عزت العطار الحسيني، ط٣، ص٧٣. (القاهرة: مكتبة الخانجي، ٢٠٠٢م).

(٤) الرجولة عماد الخلق الفاضل، حمزة شحاته، ص٢٢.

(٥) المرجع السابق، ص١١٧.

ثالثًا: تعريف شحاته لمفردات المحاضرة.

يُعرف شحاته **الفضائل** بأنها: "صفات وأعمال، تؤمن الجماعة الغالبة اصطلاحًا بفائدتها وضرورتها أو بأنها خير". **والرذائل** بـ: "صفات وأعمال، تؤمن الجماعة الغالبة اصطلاحًا بضررها، أو بأنها شر"[١].

فأدخل الصفات النفسية والأفعال في التعريف، وجعل مقياس خيريتها أو شريتها هو رأي الجماعة الغالبة؛ الأقوياء كما يشير إليهم في المحاضرة، وهم ينظرون لمدى وجود النفع لتحديد الفضائل، ومدى وجود الشر لتحديد الرذائل. ونستدرك عليه أن الجماعة الغالبة (الأقوياء)، لا يكونون الأكثر عددًا وإنما الأكثر نفوذًا، وينصب نتاج باقي الطبقات لخدمتهم.

ونلحظ أن شحاته عرَّف الفضائل تعريفًا إنسانيًا اجتماعيًا لا مثاليًا دينيًا، وهذا يربك القارئ؛ لأنه سيعود مجددًا ليقول إن الفضائل والرذائل هي ما نص عليها القرآن وحسب [٢]، فكيف يوفِّق بينهما؟! إلا إن كان التعريف الأول للبعد الإنساني، والثاني للبعد الاجتماعي.

ويبدو أن شحاته استقى تعريفه للفضائل والرذائل من نظرة الفلسفة التطورية لإمكانية خلق المجتمعات لقيمهم الأخلاقية [٣].

أما **الرجولة** فيعرفها شحاته تعريفًا غير محرر، فيقول: "مجموعة من الصفات الرائعة في الرجل الرائع"، ويقع في تناقض ظاهر؛ لكونه حدَّد أحد سماتها: "ليست الفارق الطبيعي بين جنسين" [٤]. ورغم اعتراف شحاته بضعف التعريف آخر المحاضرة؛ لأنه "تعريف تمهيدي أو رمزي"، إلا أنه لم يقدم تعريفًا آخر [٥].

---

(١) الرجولة عماد الخلق الفاضل، حمزة شحاته، ص٣٣.

(٢) المرجع السابق، ص٧٩.

(٣) يشير **نصيف المنقبادي** في مقالته عن "**غريزة الخير والشر**" إلى تعريف المدرسة التطورية للفضيلة، فيقول: "أنها ما يعود على المجتمع الإنساني بالخير، أما الرذيلة فتعود بالضرر". ويفترق شحاته عنه بذكره لوجود طبقة أو جماعة مؤثِّرة، تستأثر بتحديد القيم وهم الأقوياء، وهذا منزع **نيتشوي** ظاهر. انظر: مجلة الرسالة، (العدد ٢٠٣)، بتاريخ ١٩٣٩/٣/٢٤م.

(٤) الرجولة عماد الخلق الفاضل، حمزة شحاته، ص٢٢.

(٥) المرجع السابق، ص١١٧.

ويكشف شحاته الصفات الرائعة للرجل الرائع، فيقول: "القوة، والجمال، والحق. القوة تقابل الحياء، والجمال يقابل الرحمة، والحق يقابل العدالة. فالرجولة إذاً قوة وجمال وحق" (١). فالرجولة استقرت عنده مفهوميًا في بُعدها المعنوي القيمي (٢)، وامتاز بإضافة بُعد جمالي لها وطابع ذوقي.

ونجد **أحمد أمين** يعرِّف الرجولة تعريفًا واضحًا جليًا في مقالته "**الرجولة في الإسلام**" فيقول: "الرجولة صفة جامعة لكل صفات الشرف من اعتدادٍ بالنفس واحترام لها، وشعور عميق بأداء الواجب، مهما كلفه من مصاعب، وحماية لما في ذمته من أسرة وأمة ودين، وبذل الجسد في ترقيتها، والدفاع عنها، والاعتزاز بها، وإباء الضيم لنفسه ولها" (٣). وهو تعريف جيد، معِّبر عن مضامين الأدب العربي لولا طوله، وكأنه يكشف عن وجه المروءة الرجولي (٤).

رابعًا: ما هي الأطوار التي مرت بها الأخلاق كما يرى شحاته؟

مرت الأخلاق أو الغريزة الأخلاقية أو الفضائل والرذائل **بثلاثة أطوار**، استخلصها شحاته من قراءاته للفلسفة التطويرية والنيتشوية، على النحو التالي:

الطور الأول: ويسميه "**الطور البدائي من الحياة**" حيث تكون فيه **القوة العارية** مبدأ الإنسان وقانونه، وتكون **الرجولة رمز هذه القوة في بُعدها الجسدي**، فـ"الرجل المرموق، من استطاع أن يكتسب

---

(١) الرجولة عماد الخلق الفاضل، حمزة شحاته، ص١١٧.

(٢) في طيات المحاضرة صرح شحاته بأن "الرجولة رمز القوة العارية (الجسدية)" في طور الإنسان الأول، ثم تكون الرجولة رمزًا للقوة المعنوية (الأدبية)، وهي تنقسم إلى قوة متعدية (ينادي بها شحاته)، وقوة لازمة (أنانية)، ويحذر من دخول "اللذة الخفية" على القوة المتعدية، ويقصد بها كل الفضائل المتعدية بالنفع للناس، كالرحمة والعطاء والعدالة. وكأن جوهر الفضائل عنده ما كان "غيريًا" للآخرين أمَّا إذا كان ذاتيًا، فينطبع لديه بطابع الأنانية، فالرجولة عنده عماد الخلق الفاضل؛ لأنها قوة العطاء والبذل والإحسان للغير. انظر: المرجع السابق، ص٣٨، ٥٤، ١١٤.

(٣) مقال "الرجولة في الإسلام"، مجلة الرسالة، (العدد٩٣)، بتاريخ ١٩٣٥/٤/٢٥م.

(٤) يطلق "الرجل" في اللغة وصفًا لمرحلة عمرية تلي البلوغ، أو وصفًا لتحمل مصاعب الحياة، فيوصف بها اليافع المتيقظ والشيخ الهرم. ويُقال للمرأة رجُلة: إذا تخلقت بحالات الرجال في البروز للناس ومخالطتهم. للاستزادة، انظر: "الرجولة في أدبيات حمزة شحاته" محمد الحارثي، من مجلة "علامات في النقد"، مجلد ١٥، جزء٦٠، مايو ٢٠٠٦م، ص٨٠٣-٨٠٤.

طعامه". ويقول **إنَّ الفضائل لم تنشأ في هذا الطور**؛ لأن الإنسان ينازع فيها البقاء ويصارع الطبيعة(١).

ويستبق شحاته سؤالنا حول قيم الصبر والثبات والشجاعة، ألم يعرفها الإنسان في طوره الأول؟ ليجيبنا: "ما ندعوه محاسن أو فضائل، كان يراها [الإنسان البدائي] ضرورات تتصل بحياته يأتيها طائعًا أو مكرهًا؛ لأنه يريد أن يعيش .. فأحس الحاجة إلى القوة وأحبها". ويقصد شحاته أن **الإنسان يمارسها دون وعي بها**؛ لأن مكره عليها لظروف البقاء، ولذلك لا يعتبر هذا الفعل فعلًا أخلاقيًا؛ لأنه فعل غير واعي.

ونتفق مع شحاته في أن الواقع الاجتماعي يفرض أخلاقيات للبقاء عند الإنسان البدائي في صراعه مع الطبيعة، -وعند الإنسان الحديث في الحروب- تنشأ عنها قوانين للبقاء. ويؤخذ على شحاته **أنه لا يشير إلى البعد الفردي في اختلاف الطبائع الإنسانية** وشوقها للفضائل أو ميلها للرذائل؛ فكما يختلف الناس في خِلقتهم فكذلك يختلفون في أخلاقهم منذ ولادتهم، فمنهم الكريم والرحيم فطرة، ومنهم اللئيم والأناني سجية. وهذه الفروقات الفردية لا تظهر -غالبًا- في صراع الإنسان مع عدوٍ أشد منه بأسًا، كالطبيعة والحيوانات المفترسة؛ لأنه في موضوع الدفاع عن النفس أمام قوي كاسر، فيتوحش لأجل البقاء.

الطور الثاني: طور التعاون (المحاسن الاختيارية) أو القوة المعنوية وبزوغ عصر الفضائل.

يبدو لنا أن هذا الطور بدأ يلوح للإنسانية مع بداية تشكل الحضارات النهرية أي قبل أربعة آلاف سنة قبل الميلاد. في هذا الطور يرى شحاته أن الغرائز الإنسانية تلطَّفت حدَّتُها، نظرًا لاستقرار الإنسان وتوقف صراعه مع الطبيعة. وظلت القوة الجسدية (**الرجولة**) قيمة اجتماعية لكنها تراجعت عن ذي قبل؛ لأن الإنسان يحتاج إليها في الحروب، **ومع الاستقرار أصبحت الحاجة للقوى المعنوية**. هنا أصبح تفكير الإنسان في كيفية ابتكار مفاهيم أخلاقية ذات طابع جماعي (غيري)، من يتحلَّ بها يرمز إليه

(١) انظر: الرجولة عماد الخلق الفاضل، حمزة شحاته، ص٣٨-٤٥.

بالرجولة (المعنوية). هنا –وفقًا لشحاته– **نشأت المحاسن والفضائل**؛ لأن الإنسان يفكر في كيفية تشييد مدنيته للاستقرار، فلابد من وضع قوانين، وقبل القوانين أخلاقيات اجتماعية، نابعة من أخلاق الفرد(١).

وكما نشأت الفضائل في هذا الطور، نشأت كذلك الرذائل، ويعلل شحاته سبب نشوء الرذائل لـ"اختلاف العوامل النفسية" ويهمل دور العوامل النفسية وأثرها في الطور الأول –كما أسلفنا–.

كذلك يرى شحاته أن الإنسان في هذا الطور عندما يشذ عن رأي الجماعة يعتبر ذلك "عيبًا أو نقصًا"؛ لأن الأصل النزول على رأي الجماعة والاجتماع. من هذا الشذوذ نشأت المثالب والمعائب الذاتية؛ لكونها تتعدى في أثرها على الجماعة، فالبخل معيب، والكذب مشين؛ لأنه مضر بمصلحة الجماعة.

كما يعلل شحاته ظهور الفضائل والرذائل في هذا العصر، بوجود مساحة للأفراد للتعبير عن نوازعهم الإنسانية في حدود عدم الإضرار بالمصالح العليا للجماعة.

ونتفق مع شحاته في رؤيته لتحليل الغرائز الأخلاقية في هذا الطور؛ لأنه راعى اختلاف أخلاق الأفراد أو ما اسماه بـ"**اختلاف العوامل النفسية**". ونوافقه كذلك أن الجماعة حين ترى صفة حسنة تعود عليها بالنفع، تعدّها فضيلة، وعندما تراها تعود عليها بالضرر تعدّها رذيلة، فالفضائل والرذائل مرهونة في الحكم عليها بحكم الجماعة.

الطور الثالث: الطور الحديث أو "طور التلقي والمزاولة" أو طور شرائع الأقوياء.

يبدو أن هذا الطور يعود إلى ألفي سنة قبل الميلاد حتى العصر الحديث. وهو الطور الذي أدرك فيه الأقوياء المسيطرون على الجماعة، أنهم لكي يحافظوا على وضعهم، لابد أن يقرروا أخلاقيات وقوانين تخدمهم، بحيث "تكتسب **صفة التقاليد الواجبة**، والتي لا بد من ممارستها، ومحاولة تحويلها إلى خصائص نفسية، وفكرية ثابتة" (٢). إذن، كان سؤال المرحلة: كيف يستطيع الأقوياء صياغة فضائل أنانية، لكنها

(١) انظر: الرجولة عماد الخلق الفاضل، حمزة شحاته، ص٤٦–٥٥.

(٢) المرجع السابق، ص٥٦–٨٢.

مهذَّبة تخدم مصالحهم، دون أن تلحق بهم ذم الناس، بل أكثر من ذلك، كيف يسعون إلى ممارستها باعتبارها فضائل، وكيف يتجنبوا الرذائل باعتبارها أنانية عارية؟!

يرى شحاته أن مفهوم "القوة = الرجولة" قد انتقل من مفهومه الثاني (القوة المعنوية) إلى مفهوم جديد هو (الثروة والنفوذ)، فـ"**الثروة أقدر على تحقيق المطالب والرغبات، وبسط النفوذ من قوة الجسد وقوة الفكر** [ولذلك أصبحت] معيار الفضائل والأخلاق في هذا العصر".

ويكتب شحاته إن ذلك بالفعل تحقق، **فالناس تنجذب للقوي** ذي المال والوجاهة، فتضفي على أفعاله **قيمة الإجلال والتقدير**. إلى هنا يتفق شحاته مع **نيتشه** بأن الأقوياء وضعوا هذه القيم التي يرمز لها **نيتشه** بـ"أخلاق روما" القوية ضد "أخلاق يهوذا" الضعيفة، إلا أنَّ **نيتشه** يقول إنَّ أخلاق القوة اندحرت بسبب أخلاق الضعف التي أدخلها اليهود على الحضارة الغربية، بينما لا يقول شحاته بانتصار أخلاق الضعفاء [1].

ويضرب شحاته أمثلة لكيفية تحول الفضائل إلى فضائل أنانية مهذبة، فصفة الكرم -مثلًا- تتحول من غاية نفع الآخرين إلى "القالة الحسنة وذيوع المحمدة"، ليستفيد منها الكريم "شارة القوة والمنعة للجماعة" ويصبح "أفرادها بارزون وزعماؤها مسيطرون" وهذه الأخلاقيات من "أساليب الغارة والحرب، ودلالة على اتساع نفوذ المقدرة على الكسب والإنتاج".

فشحاته يجعل مدار القيمة حول القوة، فكل ما عبَّر عنها فهو فضيلة، تتجسد في ذات الشخص القوي، فإذا أعطى، مدحه الناس أكثر من الضعيف. ونختلف مع شحاته؛ لأن فاعلية السلوك الأخلاقي تكمن في ذاته، وأثره (أو قوته -بتعبير شحاته-) تنبع منه، بصرف النظر من داوم عليه؛ قويًا كان أم ضعيفًا، فالقوي إنما يستحق الحمد بقيامه بفضيلة الإكرام؛ لأنها -في ظاهرها- بذل وعطاء للآخرين، سواءً كانت جودًا من النفس أم تجودًا، فمجرد الفعل الكريم في ذاته يُصيِّر الشخص مستحقًا للحمد والفضل؛ لأن نفوذ الأقوياء يكون في سَن القوانين، لا في تغيير مفاهيم الخير والشر، فالقوانين يسنها

---

(١) نيتشه، عبدالرحمن بدوي، ص١٧٢-١٨٦.

المتغلبون بما يخدم مصالحهم. ومع ذلك تبقى القيم الأخلاقية قابلة للتأويل الفاسد؛ سواءً بسواء كتأويل الدين، لكن ليس لحد المحو والإزالة والقلب.

خامسًا: حمزة شحاته مصلحًا اجتماعيًا وواعظًا أخلاقيًا.

في القسم الأخير من المحاضرة حصل تغير لافت وغير مفهوم في حديث شحاته، تحول لا ينتمي إلى أي من قِطَعة النثرية قبل المحاضرة أو بعدها، ألا وهو اختزاله الحقيقة الأخلاقية في "النص الديني"، فالفضائل الحقَّة هي كل ما أمر الله به في كتابه، أما غيرها فتسمى "محاسن ومعائب يهبط بها العُرف أو يعلو". يقول شحاته: "ولنا رأي نخالف به الاصطلاح الشائع في الفضائل والرذائل، خلاصته أنَّا لا نرى صفة من هذه الصفات التي جرينا في هذا الحديث على تسميتها فضائل ورذائل، ما هو خليق بهذه التسمية. وإنما ندعوها محاسن ومعائب فردية يهبط بها العرف أو يعلو .. أما الفضائل التي نراها خليقة بهذه التسمية، فهي التي نزل بها القرآن ودعا إليها". ويعلل شحاته ذلك بقوله: "تلك فضائل، لا يمكن للمتصف بها، والمؤمن بقوانينها، نظرٌ إلى مصلحة أو سمعة .. وإن كان شيء من ذلك فالمثوبة عند الله، والزلفى إليه" (١).

ويضرب شحاته مثالًا على هذه الفضائل القرآنية بـ"**الكرم**"، فيقول: "فالكرم فيه إحسان إلى مستحقه، ينزل منزلة الحق المفروض له، وخروج من سلطان المادة وحدودها في سبيل الله" (٢).

ونرى أن شحاته وقع في أخطاء منهجية ودينية، فالمنهجية أنه حلَّل الغرائز الأخلاقية تحليلًا تاريخيًا في كيفية نشوئها انطلاقًا من جدليتها مع الواقع، دون اكتراث لجدليات القيم الدينية مع الواقع، وتوظيفها لصالح قوى اجتماعية معينة. فدعوى شحاته تسمية الفضائل الدينية بالفضائل الحقة غير واقعي وغير

(١) الرجولة عماد الخلق الفاضل، حمزة شحاته، ص٧٩.

(٢) المرجع السابق، ص٧٩.

تاريخي؛ لأنه ذكر نشوء الفضائل الإنسانية والنوازع الأخلاقية منذ الطور الأول (طور الضرورة) والطور الثاني (طور المحاسن الاختيارية).

ثم أليست هذه الفضائل الدينية التي يمتدحها هي ذاتها الفضائل المدنية قبل أمر الدين بها؟ وهو ما يذكرنا بسؤال أفلاطون في "محاورة مينون" (الفضيلة) و"محاورة القوانين"، هل الخير خير في ذاته أم خير لأن الآلهة أمرت به؟ وهو ذاته سؤال المعتزلة في الفكر العربي الإسلامي، هل الخير خير في ذاته أم لأن الله أمر به؟ (التحسين والتقبيح العقليين).

أما المأخذ الديني، فالإسلام جاء مكملًا لمكارم الأخلاق العربية، والرسول (ﷺ) قال: [خياركم في الإسلام خياركم في الجاهلية إذا فقهوا]، والإكمال هنا بإضافة البعد الأخروي في الجزاء. ونلحظ كذلك، أن شحاته تجاهل أنانية الإنسان ونوازعه في توظيف الفضائل الدينية، فالكرم يمكن أن يكون أنانية مهذبة، ألم يقل الحق (ﷻ) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تُبْطِلُواْ صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأذَى﴾ [البقرة: ٢٦٤].

ويبقى السؤال مفتوحًا، لماذا حصل هذا التحول في حديث شحاته؟ هل هو تحول وعظي مصلحي لإقناع الناس، أم رأي فكري؟ لا نستطيع الجزم بأيهما تقنَّع شحاته؛ لأنه بعد ذلك عاد لخطابه الدنيوي في تحليل الفضائل. لكن بصيغة تزاوج بين الفضائل الدينية والفضائل الإنسانية، وكأنه أراد الجمع بينهما في تقريره، لا في تحليله النقدي.

سادسًا: الرجولة أو القوة عماد الخلق الفاضل.

ختم شحاته محاضرته بالدعوة إلى إصلاح الأخلاق، عبر ثلاثة مسالك:

المسلك الأول: الالتزام بـ"كل فضيلة من فضائل القرآن، تضرب المثل الأعلى الكامل للقوة" (١).

وهنا يؤَول شحاته النص الديني لصالح فكرته الدنيوية، فهو جعل من القوة (الرجولة) محرك القيم عبر التاريخ وعبر الدين، فيطوّع النص الديني لصالحها.

---

(١) الرجولة عماد الخلق الفاضل، حمزة شحاته، ص٨٣.

المسلك الثاني: دعى إلى إصلاح الانحراف الذي لحق بالفضائل القوية، فهو يرى أن "شهوة خفية" لحقت بالفضائل التي ترمز للقوة، ولا بد من التخلص منها. يقول شحاته: "كل فضيلة من فضائلنا تضرب مثلًا للضعف والتهافت والتمويه، فأعرضوا عنهما، وانبذوها. وليكن الكريم الوهاب محسنًا أنوفًا يأبى أن يأخذ بما يعطي شيئًا، وليكن محسنًا بصيرًا .. يفرق بين الحسنة الواجبة، والمحمدة الزائفة. وليكن المتواضع صادقًا لا طامعًا..

فهذه حقيقة الفضائل كما تعرفها القوة، لا كما يعرفها الاصطلاح. وما على كل فاضل إلا أن ينزع من فضائله نصيب نفسه الترابي فيها، فإذا هي فضائل القرآن التي تصنع للأفراد الصحائف الذهبية في التاريخ" (١).

ونلحظ هنا أن شحاته ظل مقتنعًا أن القوة هي أم الفضائل السائدة حتى اليوم، خلافًا **لنيتشه** الذي يرى في الأخلاق السائدة منذ أكثر من ألفي عام تقريبًا، أخلاقًا من صناعة الضعفاء.

والسؤال المطروح، أليس الانحراف الحاصل في الفضائل ناشئ عن نزعات الإنسان الشخصية، قبل أن يسعى الأقوياء لفرض قيمهم وقوانينهم الأخلاقية؟ أليس في الإنسان نوازع للخير والشر؟ والمقصد أن تغير القيم في العصر الحديث دخل في صياغته عوامل اقتصادية واجتماعية نتيجة لصراع طبقات، قبل سيادة الطبقة البرجوازية.

المسلك الثالث: الحياء (قوة النفس) هو قوام الفضائل. يقول شحاته إن للفضائل جماع يرتبط بها جميعًا هو "الحياء والرحمة والعدالة. وقوام هذا الجماع الحياء" وعمادها رمز القوة وهو الرجولة. ويقول: "إن كل صفة فاضلة مردها الحياء أخيرًا" (٢).

---

(١) الرجولة عماد الخلق الفاضل، حمزة شحاته، ص٨٣.

(٢) المرجع السابق، ص٨٣-٨٤.

ويرى شحاته أننا لم نحسن توظيف قيمة الحياء وتفجير مكامن قوته القيمية، واختزلناه في "الشعور بالنقص" أو اعتباره "ضابط الصفة، وصمام الأمن في أخلاق المرأة، ودوافعها الطبيعية"، أو يتم توظيفه في النهي عن صغائر الأمور كنهي الطفل عن الإساءة إلى الحيوان.

ويدعو شحاته إلى جعل الأمر بالحياء ملازمًا لنا في كل ضروب الحياة، فيقول:

"أيها الخطيب الذي يضلل الضمائر، ويقول ما لا يعتقد استح!

أيها المتحدث الذي يخدع أخاه، بما يضمر ضده استح!

أيها البائع الذي يروج سلعته، بالزيف والتمويه استح!

أيها الكاتب الذي يئد الحق والجمال والقوة ليظهر استح!

أيها الفاضل الذي يتاجر بفضيلته، ليفيد بها مالًا وسمعة وجاهًا استح!

أيها الكريم الذي يقيم المآدب، ينفق عليها المئات، في مآتم أمته استح!

أيها المتعلم الذي يحتقر الأمي والعامي. ويبصبص للقوة والنفوذ استح!" (١).

فشحاته يريد أن يكون ضمير الإنسان حاكمًا عليه عبر قيمة الحياء، فيقول: "معنى الحياء في الرجل أنه الرجل لا يقتنصه القانون، ولا تقتنصه القوة، ولكن يقتنصه ضميره ويغلبه حياؤه" (٢). ومن نافل القول أنَّ شحاته استدل بما ورد في الأحاديث النبوية ليرجح فكرته في مركزية الحياء [إنَّ مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى، إذا لم تستح فاصنع ما شئت] كما ورد في الأثر الكريم.

ويُسجل لشحاته حديثه عن قيمة الحياء، والتي هي قيمة مركزية وهامة في التراث العربي والإسلامي، يندر الحديث عنها في كتب فلسفة الأخلاق كقيمة جامعة للقيم الأخلاقية، فهو من أطلق مكامن قوتها، بأن حشد لها كل الاستدلالات والاستشهادات بعد تهميشها قرونًا.

---

(١) الرجولة عماد الخلق الفاضل، حمزة شحاته، ص١٠١.

(٢) المرجع السابق، ص١٠٤.

ونطرح سؤالًا، هل أراد شحاته استنهاض **قيمة الحياء** أم **ضمير الإنسان**؟ يظهر أنه يعول على يقظة ضمير الإنسان، ومدى تحليه بالقيم الإنسانية، فمتى ما كان الضمير حيًا؛ وقع الحياء منه موقعه، ومتى ما كان الضمير ميتًا لم يفده الحياء شيئًا! وهكذا انتهى شحاته إلى جعل خلق الحياء وسيلة ليقظة الضمير لا غاية في ذاته!

ونختم ورقتنا برثاء حمزة شحاته للرجولة في ختام محاضرته:

"أين الرجولة تأخذ بيدها، وتقيل عثراتها؟

الرجولة التي كانت رمز القوة الفعالة في الإنسان القديم!

ورمز سجاياه ومحاسنه في أولى وثباته إلى التطور!

ورمز الحياء والرحمة والعدالة في فجر مدنيته المنبثقة!

ورمز المبدأ للعربي يوم نهض بأعباء رسالته التاريخية!

رددوا معي: أين التربية.. أين المدرسة.. أين الرجولة.. لتعرفوا لماذا يقيم تاريخنا مأتمه الباكي؟" [1].

---

(١) الرجولة عماد الخلق الفاضل، حمزة شحاته، ص١٢١.

الملحق الأول: مقالة حمزة شحاته: "فضائل مجفوة" [1]

من الواجب أن تتغير نظرة الناس إلى كثير من الفضائل، فإن العفة لم تعد في موازين الحياة العامة إلا ضعفاً، والأنفة حماقة وأفنًا في العقل!

ومن طبيعة هذا الاعتبار أن يصرف الرغبة عن تشجيع الفضائل وإكبارها فتضعف وتتلاشى، ويتسع المجال لأضدادها فتقوى وتنمو...

وليقل لنا من يماري في هذه الحقيقة، ما هي نظرة الناس إلى الحياء الذي كان معدودًا من أكثر الفضائل تمثيلًا لكمال النفس؟.. أليس هو اليوم معدودًا من دلائل الضعف والفتور وانحلال الحيوية؟

ولا ننكر أنه معدود فضيلة في نفوس الناس، وعلى ألسنتهم، كما هو معدود هكذا في بطون الكتب، ولكنه ليس كذلك في زحمة الحياة ومقاييس الواقع الملموس.

وقد تجد رجلًا يستحي ويأنف أن يريق ماء وجهه في التسكع على أبواب العظماء واستجدائهم وإرهاقهم بمطالبه، عزوفًا عن الضعف، فيتنكَّرون له ويحاربونه ويعملون على محوه، كأنَّما يعدون انصرافه عن غشيان مجالسهم، واحتمال انكماشهم عنه، تعاليًا يستحق عليه العقاب. وهو لو لاقاهم لذاق الويل من الغطرسة والخيلاء، ولما كان في اعتبارهم أكثر من فرد لا يأبهون له في جد أو هزل، ولما لاقوه إلا بما تنفجر له النفس الأبية إباءً، وهم إذا أباحوه عطفهم؛ أو بشاشتهم وإقبالهم، فإنما يفعلون بعد أن يكون قد أبلى وجهه، وأحفى رأسه وقدميه، في مسابقة خدمهم إلى أداء أحقر واجباتهم وأدقها تمثيلًا للمذلة والهوان...

وربما مات الأنوف جوعاً، والناس خبيرون بحاله، فلا يدفعهم إلى تفقده والعطف عليه بدافع من دوافع الإنسانية والرحمة، وإكبار الفضائل ولا يكون ذنبه بعد ذلك إلا أنَّه ترفَّع عن السؤال.

---

(١) جريدة صوت الحجاز، (العدد ٢٢٦)، بتاريخ ١٩٣٦/٩/٢٩م.

فما هي هذه الفضائل المجفوَّة المنكورة؟ ولماذا يلقِّنها الناس أبناءهم إذا كان نصيب المتحلي بها الإنكار والاحتواء؟

والجرأة الأدبية، وعلو النفس، من جملة الفضائل التي تربي الأمم أبناءها عليها وتأخذهم بها أخذًا لا هوادة فيه، وتوسِّع المجال لاقتبال نتائجها. فما هو المجال الذي يهيئه فهمنا، وتقديرنا لهذه الفضائل؟ إنه ليس إلا مجال السخرية والامتهان والكبح فيما نعرف..

ولو أن مفكرًا حرًا زيَّن للناس أن يربوا أبناءهم على الوقاحة في مواضع الحياء وعلى الضراعة والاستخذاء في مواقف الإباء والكرامة، وعلى الكذب والرياء والملق والخداع، لقال الناس أنه إباحي لا يقيم للفضائل وزنًا، جاهلين أنه إنما يبني جيلًا ناجحًا بهذا المبدأ، ويقضي على آخر ضعيف متعثر..

وها نحن نرى اليوم وسائل النجاح محصورة في مجموعة من الرذائل والصغائر، كان الواجب أن نتنكر لها ونحاربها بكل ما أوتينا من قوة الإيمان والخُلق، كما يفعل غيرنا من بني آدم...

وبعد، فما يدفعنا إلى إجمال هذه الفكرة عداؤنا للفضيلة، ولكن رثاؤنا لها، وإنَّا لمن أول المؤمنين بأن الفضائل التي مشت الإنسانية على ضوء هديها، وما تزال تستمد منها حياتها، لخليقة بألا تحارب بتشجيع أضدادها.

الملحق الثاني: مقتطفات من خطبة حمزة شحاته:

"الثورة الفكرية
ونصيب مدارسنا منها" (١)

«ننشر فيما يلي نص الخطبة التي ألقاها أديبنا البارز الأستاذ حمزة شحاته في حفلة مدرسة الفلاح السنوية بجده كأنموذج راقٍ لأدب الخطابة، ومثال كمالي لفلسفة الثورة الفكرية، وتصوير لحياة المدرسة وآثارها في حياتنا العامة»

سادتي. إخواني التلامذة

لست خطيبًا مطبوعًا على الخطابة، ولا أنا من ذوي الماضي المجيد فيها. وسيمهد لي هذا الاعتراف سبيلَ النجاة من نقد الناقدين، وسخط الساخطين، إن شاء الله.

أسَّس هذه المدرسة ومثيلاتها، رجل ثائر تعرفونه جميعا باسمه الذي يملأ الأسماع والقلوب، وبأخلاقه العالية، وفضائله الممتازة (٢). وسيدهشكم أن يُعد هذا الرجل العظيم الوديع المتزن، ثائرًا. لأننا نفهم من الثورة معنى التطرف والتمرد والتحطيم، ولكن للثورة اليوم معنى غير هذا...

إنَّ أي إصلاح في الدنيا، إنما هو ثورة على أسلوب عقيم، وخروج على سبيل عوجاء، إلى سبيل أكثر ملاءمة لعقول الناس، ومطالب حياتهم، فالثورة إذاً ليست أكثر من تجديد وحرية.

والحياة نفسها ثائرة ما تهدأ ولا تستقر، فهي تستبدل دائمًا قديمها البالي بجديدٍ صالح. والعقل الإنساني ثورة محتدمة في تاريخ البشرية منذ كانت، والدنيا ميدان هذه الثورة...

---

(١) جريدة صوت الحجاز، (العدد٢٥١)، بتاريخ ١٩٣٧/٤/٦م.

(٢) يقصد الشيخ محمد علي زينل (مؤسس مدارس الفلاح في جدة ومكة المكرمة) مختلف في تاريخ ولادته، وقيل عام ١٨٧٣م وقيل بعد ذلك، وتوفي عام ١٩٦٩م.

انظر: تحفة الزمن بتراتيب تراجم أعلام الأدب والفن، أدهم الجندي، ج٤، ص٣٨٥-٣٨٨. (بيروت: دار المقتبس، ٢٠١٥م).

ووسائل الحضارة ليست إلا صورًا تمثِّل ثورة العقل، فالسيارة ثورة في تاريخ وسائط النقل القديمة، كما أن الطيارة ثورة في وسائلها الجديدة، والطبيب الفني ثورة في تاريخ الطب القديم الذي كان يعتمد على الغرض والتخمين، والمدرسة المنظمة ثورة في تاريخ التعليم...

وعلى هذا القياس فإن مدارس الفلاح ثورة في تاريخ بلادنا؛ ومؤسسها ثورة في تاريخ رجالنا وحياتنا[١].

كانت الأميَّة في الحجاز، أو في حواضره الكبرى ظلمة مطبقة، وكان الجهل يحتل من الصدور مكان العقائد الراسخة.

وكان العلم قبل تأسيس هذه المدارس فرصة لا تتاح إلا لأبناء طبقة خاصة من الأمة، على ضيق دائرته، وتفاهة محصوله، فلم يكن يعدُّ المتعلمُ لأكثر من الإلمام البسيط بمبادئ الحساب والكتابة والقراءة.

ولا يزال بيننا من يذكرون أن الرجل كان يحمل ورقته ويقطع الأسواق بحثًا عمن يحسن قراءتها وفهم مضمونها، فلا يجده إلا بعد العناء.

في هذا العهد كان مؤسس هذه المدارس شابًا في مقتبل عمره، تعتلج في صدره ثورة مستعرة تريد اليقظة لبلادٍ كل ما فيها راكد نائم، ولم يكن يلقى من يعينه على همه؛ لأن الإقدام على إنشاء مدرسة منظمة كان يعد تجديدًا خطرًا لا يقدم على التفكير فيه إلا متطرف.

وقد درج الناس على أن تكون حياتهم صورًا دقيقة لحياة أسلافهم، ولم يكن من السهل إقناع الأفكار بضرورة التعليم المدرسي والإيمان به. وكان التغلب على عقبة كهذه يعد وحده معجزة لا يحققها إلا رجل ثائر لا يقيم لحياته وزنًا، ولا لراحته حسابًا. وتمت الثورة وآتت ثمرتها فتقلصت الأمية، وظهر جيل مستنير يتطلع إلى الحياة بعيون يقظى، وأفهام سليمة. وأصبح في ناشئتنا الأديب والشاعر والخطيب. هذا أثر التعليم، فأين أثر ذلك الرجل الثائر؟

---

(١) للاستزادة حول تاريخ مدرسة الفلاح، انظر: تاريخ مدارس الفلاح والحاج محمد علي زينل، حسين صنيدح البقمي، د.ن، ٢٠١٦م.

إنَّنا لا نجد من روحه الثائرة أثراً في نفوس الناشئة، فلا تجديد في ناحية من نواحي الحياة المادية والفكرية، ولا تجديد في ناحية التربية وإعداد النشء الجديد للحياة الصحيحة.

لقد فقدنا تمامًا روح الحياة في نفوس ناشئتنا المتعلمة بعاملين: عامل الإقبال على الوظائف، وعامل العطلة. أما الوظائف فهي المجال الوحيد لارتزاق قسم كبير منهم، والعطلة تلتهم الباقين التهامًا لا هوادة فيه.

إنَّ بعض الأمم تحدد النسل وتكافحه بطرق علمية عندما تحس خطرًا على الأمة من إطلاقه، وأرانا أولى الأمم بتحديد التعليم؛ إن كنَّا لا نستطيع أن نهيئ للمتعلمين من ناشئتنا ميادين جديدة للنشاط والعمل والكفاح.

ولكن أيها السادة من هو الوالد الذي يرضى لابنه الجهل بعد أن تذوَّق لذة المعرفة؟ ومن هو الوالد الذي يرضى أن يخسر أبناءه بعد أن يحملوا شهاداتهم الدراسية؟ إنَّ شقاء والد يعول أبناء متعلمين عاطلين، أكثر من شقاء والد يعول أبناء جهلاء يمكنهم أن يغشوا ميادين النشاط العادية، ويرضون من الحياة ما ترضاه العجماوات السارحة.